

أوسكار وايلد

شبح كانترفيل

تعريب لويس عوض


الكتاب للجميع



سلسلة شعبية تعيد اصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشراف الفني

محمد سعيد الصكار

الاشتراك:

٦٠ دولار في البلدان العربية

١٠٠ دولار في اوروبا والامريكيتين

العنوان

سوريا - دمشق صندوق بريد: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦

فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩



٢

اوسكار وايلد

شبح كانترفيل

تعريب لويس عوض

الطبعة الأولى ١٩٤٦
طبعة خاصة
دار المدى للثقافة والنشر ٢٠٠١

هذه القصة سجل طريف للمحن التي

ألمّت بشبح قصر آل كانترفيل حين انتقل

هذا القصر التاريخي إلى وزير أمريكا

المفوض في بلاط سانت جيمس

الفصل الأول

عندما ابتاع هيرام ب . أوتيس وزير أمريكا المفوض في بلاط سانت جيمس قصر كانترفيل لامة جميع عارفيه ووصفوا عمله ذلك بأنه حماقة كبرى ، فما من شك في أن القصر كان "مسكونا" بل إن لورد كانترفيل ذاته ، وهو رجل يقدس الشرف قد رأى أن من واجبه تنبيه مستر أوتيس إلى هذه الحقيقة حين أخذا يدرسان شروط البيع ، فقال :

– يجب أن أذكر لك يا مستر أوتيس أننا قد نزحنا عن القصر منذ أن أصيبت عمة أبي دوقة بولتون بنوبة رعب شديد لم تشف منها تماما حتى هذه اللحظة ، فقد كانت ترتدي ثياب السهرة تأهبا للعشاء فإذا بها تحس بيدي هيكل عظمي تستقران على كتفيها . والواجب يلزمني أن أذكر لك يامسترأوتيس أن جملة أفراد من أسرتي لايزالون على قيد الحياة قد رأوا الشبح رؤية العين ، كما رآه أسقف الأبرشية ، نيافة أوغسطس دامبير ،الزميل بكلية الملك بكامبريدج. وقد تركنا أكثر خدمنا من الشباب منذ حادثة الدوقة ، ولازم الأرق ليدى كانترفيل بسبب ما تسمعه أثناء الليل من أصوات رهيبة تنبعث من الدهليز ومن مكتبة القصر.

فأجاب الوزير المفوض قائلاً :

- أنا يا سيدي اللورد سأشتري الأثاث والشبح حسب تقدير الخبير . فالبلاد التي أنتمي إليها بلاد عصرية ، فيها كل ما يمكن للمال أن يبتاعه واعتقادي أنه لو كان في أوروبا شبح حقاً لاقتنصه فوراً شباننا المتأنقون الذين يفدون عليكم كل عام ويفتحون الدنيا القديمة فتح الغزاة ويعودون إلى الدنيا الجديدة بخيرة ممثليكم وممثلاتكم ، ولرأيناه معروضاً في متحف من متاحفنا أو في شارع من شوارعنا .

قال لورد كانترفيل :

- ولكن وجود الشبح حقيقة مقررة وإن كان مندوبوكم الأذكياء لم يعثروا عليه . ونحن نعلم بوجوده منذ ثلاثة قرون ، أو منذ سنة ١٥٨٤ على وجه التحديد ، وهو يظهر كلما حضرت الوفاة فرداً من أفراد الأسرة .

- هذا يصدق عن طبيب الأسرة كذلك يا لورد كانترفيل . ولكني أجزم يا سيدي بأن الأشباح لا وجود لها وأعتقد أن الطبيعة لن تغير مجراها إرضاء للأرستقراطية البريطانية .

لم يفهم لورد كانترفيل عبارة مستر أوتيس الأخيرة وأجاب قائلاً :
- ما أشد إيمانكم بالمنهج العلمي ، معشر الأمريكيين . وإذا كان لا يضيرك أن تقيم في بيت مسكون فلا بأس عندي من هذه الصفقة . ولكن لا تنس أني حذرتك .

وتمت الصفقة بعد أسابيع قليلة . وما انتهى الموسم إلا وقد انتقل الوزير المفوض وأسرته إلى قصر كانترفيل . أما مسز أوتيس فقد كانت قبل زواجها بالوزير تسمى الآنسة لوكرشيا تابان وتسكن الشارع الثالث والخمسين الغربي ، وكانت من أشهر جميلات نيويورك ، وهي الآن سيدة في منتصف العمر تلفت الأنظار أناقتها الشديدة وعيناها النجلاوان ويسحر القلوب منظرها الجانبي . وتتوهم كثير من الأمريكيات أن ادعاء المرض من خصائص المجتمع الراقي في أوروبا ،

ولذا فهن يصطنعنه اصطناعاً كلما خرجن من بلادهن . ولكن مسز أوتيس لم ترتكب هذه الغلطة قط ، فقد كانت ذات بنية قوية يملؤها حب الحياة . ولقد .كانت كالإنجليزيات في كثير من خصالها ، بل لقد كانت نموذجاً حياً يثبت أننا لا نختلف الآن عن الأمريكيين في شيء ما خلا اللغة طبعاً وكان ابنها الأكبر فتى ذهبي الشعر وسيم الطلعة إلى حد ما ، وقد أعد نفسه للوظائف الدبلوماسية كما يفهمها الأمريكيون بإتقانه فن الرقص . وكان يقود الراقصين في كازينو نيوبورت وتحدث الناس بمهارته في مراقص لندن . واختار له والداه عند مولده اسم واشنطن في لحظة حماسة وطنية ، ولكنه ظل ناقماً على هذا الاسم طول حياته . ولم يكن به من نقائص إلا كلفه الشديد بأزهار الجاردينيا ورغبته الملحة في أن يكون من ذوي الألقاب . وكانت أخته مس فرجنيا أوتيس صبية صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها ، ينبثق منها الحسن وتنبثق منها الحيوية كأنها حورية من حور الأساطير ، ترى قلبها الخلي في عينيها الزرقاوين الصافيتين . وتفيض بالعافية كأنها أمازونة من الفارسات المحاربات اللائي جاء ذكرهن في التاريخ . ولقد خرجت ذات مرة للنزهة على مهرها مع اللورد بيلتون العجوز وكان بينهما سباق فركضا حول هايدبارك مرتين فتقدمته بطول ونصف طول عند تمثال آخيل .

وسر بذلك الدوق الصبي ، دوق تشيشاير ، سروراً لا مزيد عليه وعرض عليها الزواج لو هلته ، ولكن أوصياءه ردوه إلى آتون في تلك الليلة بالذات فعاد إليها تجري دموعه أنهاراً . ويلي فرجنيا التوأمان . ولقبهما في الأسرة العلم الأمريكي أو على الأصح "النجم والأشرطة" لكثرة ما يبقى على جسديهما من علامات الضرب ولكثرة ما يريان من نجوم كلما ضربا . وكانا غلامين ظريفين ، وإذا استثنينا سعادة الوزير المفوض لم يكن بأسرة أوتيس من يدين حقاً بالمبادىء الجمهورية سواهما .

وكان قصر كانترفيل يبعد سبعة أميال عن أسكت وهي أقرب محطة من محطات السكك الحديدية للقصر ، ولهذا أبرق مستر أوتيس يطلب عربة تحمله إلى داره الجديدة وسارت بآل أوتيس العربة تشق طريقها

إلى كانترفيل وهم في سرور عظيم. فالمساء في يوليو جميل والهواء رقيق عاطر بأريج غابة الصنوبر . وسمعوا في طريقهم إحدى حمائم الغابة تهدل وقد سحرها صوتها الجميل ، ورأوا طيور الدرّاج يلمع صدرها وسط الأعشاب ذات الحفيف . واسترقت النظر إليهم من بين أغصان الزان السناجيب الصغيرة ، وفرت الأرانب واثبة تخترق الأشواك وتجتاز المرتفعات التي كستها الطحالب . ولكن ما أن بلغوا طريق كانترفيل الظليل حتى اكفهر وجه السماء وركد الهواء ركوداً غير مألوف ، وشاهد آل أوتيس سرباً عظيماً من الغربان يندفع فوق رؤوسهم ولا يسمع له صوت. وقبل أن يبلغوا الدار انهمرت قطرات جسيمة من عين السماء . ووجدوا بباب الدار امرأة هرمة تقف في انتظارهم ، وكانت ترتدي ثوباً من الحرير الأسود ومن فوقه فوطة بيضاء وعلى رأسها قلنسوة بيضاء . وكان ملبسها مرتباً يدل على العناية ، وكانت تدعى مسز أمني . ومسز أمني هذه هي مدبرة الدار ، وقد استبقتها مسز أوتيس في خدمة الدار بعد أن رجتها ليدي كانترفيل رجاء حاراً أن تستبقيها . ولما أخذوا ينزلون من العربة انحنت وثنت ركبتها تحية لكل فرد منهم وقالت في لهجة غريبة عتيقة : نزلتم أهلاً بقصر كانترفيل . وتقدمتهم فاجتازت بهم القاعة الفخمة المبنية على طراز أسرة تيودور ، ودخلت بهم المكتبة فوجدوها غرفة طويلة منخفضة السقف تزين جدرانها ألواح البلوط السوداء ، وتنتهي بنافذة كبيرة زجاجها ملون. وفي المكتبة وجدوا الشاي في انتظارهم وبعد أن خلعوا معاطفهم جلسوا ليتناولوا شايهم وأجالوا البصر في أرجاء الغرفة يتفقدون ، ووقفت مسز أمني بالقرب منهم في انتظار أوامرهم .

ثم لاحظت مسز أوتيس فجأة أن على أرض الغرفة بجوار المدفأة بقعة باهتة ولم تدر ما تكون هذه البقعة فقالت مخاطبة مسز أمني :

– أرى أن على الأرض آثار سائل أريق .

فأجابت المدبرة العجوز بصوت خفيض :

– نعم يا سيدتي ، فقد أريق الدم في ذلك المكان .

فصاحت مسز أوتيس قائلة :

– يا للفظاعة! أنا لا أحتمل أن أرى بقعة دم في الصالون ، ولا بد من إزالتها فورا .

ولكن المرأة العجوز ابتسمت وأجابت بصوتها الخفيض الذي يوحي بالأسرار :

– إنه دم ليدي إليانور دي كانترفيل التي قتلها زوجها سير سيمون دي كانترفيل عام ١٥٧٥ في ذلك الموضع من الغرفة . وقد عاش سير سيمون تسع سنوات بعد موتها ثم اختفى فجأة بطريقة عجيبة لا يعلم أحد عنها شيئا . ولم يعثر أحد على جثته ولكن روحه الآثمة لا تزال تسكن القصر . وقد نالت بقعة الدم هذه إعجاب كثير من السائحين وسواهم من رواد الدار ، ولا تمكن إزالتها .

فصاح واشنطن أوتيس قائلاً :

– أي هراء هذا ! إن دهان بنكرتون الأصلي العجيب كفيل بأن يزيلها في ثوان .

وانكفأ على الأرض فوراً قبل أن تجد المدبرة العجوز مجالاً للتدخل ، وأنشأ يحك الأرض بقلم صغير أسود يشبه الأقلام الملونة التي تستخدم في التزيّن ، وفي لحظة اختفى كل أثر لبقعة الدم .

وقال واشنطن بلهجة الظافر والأسرة من حوله معجبة :

– أما قلت لكم إن دهان بنكرتون كفيل بإزالتها ؟ ولكن ما أن فرغ من عبارته حتى أضاء الغرفة المقبضة وهج برق مخيف ، ودوّت فيها قعقعة رعد عظيم ، فهبوا جميعاً واقفين وخَرت مسز أمني مغشياً عليها .

قال وزير أمريكا المفوض وهو يشعل سيجاراً طويلاً بعد أن هدأ روعه :

– ياله من جو بشع! أظن أن انكلترا قد ازدحمت بالسكان أكثر مما ينبغي والحكومة لهذا عاجزة عن توفير الجو الصحو لجميع أبناء الشعب . إن رأيي الثابت هو أن الهجرة هى العلاج الوحيد لجميع مشكلات انكلترا .

وقالت مسز أوتيس :

– ما دواء الإغماء يا عزيزي هيرام ؟

فأجاب الوزير المفوض :

– اخصميه من أجرها كما تخصمين ما تكسره من الأواني ، فإن فعلت ذلك لم تعد إلى الإغماء مرة أخرى .

وقد حدث ما كان يتوقعه تماماً لأن مسز أمني أفاقت بعد لحظات معدودات ، ولكن اضطرابها كان عظيماً ما في ذلك شك ولقد تنبأت لمستر أوتيس بكارثة تحل بالدار قالت :

– لقد رأيت شتى الأشياء تحدث في هذا البيت يا سيدي . رأيتها رؤية العين ولم أسمع بها من إنسان ولكم قضيت الليالي لا يغمض لي جفن لفظاعة ما رأيت ولكن مستر أوتيس وزوجه أكدا لهذه المرأة الطيبة أنهما لا يخشيان الأشباح . واستمطرت المدبرة العجوز بركات السماء على سيدها الجديد وعلى سيدتها الجديدة ، ولم تنس أن تفاوضهم في رفع أجرها ، ثم انصرفت تخب في سيرها قاصدة غرفتها .

الفصل الثاني

زمزمت العاصفة طول الليل ، ولكن لم يحدث شيء ملحوظ في قصر كانترفيل . غير أنهم وجدوا بقعة الدم قد تجددت في الصباح . قال واشنطن وهم يتناولون فطورهم :

- أنا أثق بدهان بنكرتون الأصلي العجيب ثقتي بنفسي ، وقد جربته مراراً وتكراراً فأزال البقع بجميع أنواعها ، فلا بد أن يكون هذا من عمل الشبح .

وأزال بدهانه البقعة للمرة الثانية ، ولكنها تجددت في الصباح التالي . كذلك ظهرت البقعة في اليوم الثالث بالرغم من أن مستر أوتيس كان قد اقفل المكتبة بالمفتاح بيده أثناء الليل وحمل المفتاح إلى غرفته . وثار فضول الأسرة فرداً فرداً . وبدأ مستر أوتيس يراجع نفسه في إنكاره المطلق لوجود الأشباح ، وصرحت مسز أوتيس برغبتها في الانضمام إلى "جماعة تحضير الأرواح" أما واشنطن فقد كتب رسالة مسهبة في"ثبات البقع الدموية الناشئة عن الجريمة ."نعم .في تلك الليلة زال عن آل أوتيس كل شك في أن للأشباح وجوداً موضوعياً .

كان النهار دافئاً مشرقة شمسه ، فلما جاء الأصيل الرطيب خرجت

الأسرة بكامل هيئتها للنزهة في العربة ، ولم يعودوا قبل تمام الساعة التاسعة ، ثم تناولوا عشاء خفيفاً . ولم ينصرف حديثهم إلى الأشباح إطلاقاً ، مما يدل على أن نفوسهم كانت خالية من الاستعداد الذي يسبق عادةً شهود الأرواح . بل دار الحديث كما علمت فيما بعد من مستر أوتيس حول الموضوعات المألوفة بين أبناء الطبقة المثقفة من أثرياء أمريكا . مثال ذلك : ضآلة سارة برنار إذا هي قيست بالآنسة فاني دافنبورت . صعوبة الحصول في بيوت انكلترا ، حتى في أرقاها ، على القمح الأخضر والكعك المصنوع من القمح الأسود وجريش الذرة ، من كل ما يأكله الأمريكيون في بلادهم أهمية الدور الذي تلعبه بوسطن في تقدم الروح الإنسانية . منافع نظام الأمتعة الجديد في السفر بالسكك الحديدية . جمال لهجة نيويورك إذا قورنت بلهجة لندن المتكاسلة . ولم يجر بتاتا ذكر العالم المجهول ، ولم يشر أحد بكلمة واحدة إلى سير سيمون دي كنترفيل . فلما أن بلغت الساعة الحادية عشرة أوى كل إلى غرفته ، وبعد نصف ساعة أطفأت جميع الأنوار . ولكن مستر أوتيس استيقظ بعد فترة ، استيقظ على ضجة عجيبة في الدهليز خارج غرفته . وكان الصوت الذي سمعه أشبه شيء بصليل المعادن ، وخيل إليه أن الصوت يقترب منه لحظة بعد لحظة . فنهض فورا وأشعل عودا من عيدان الكبريت ونظر إلى الساعة فإذا هي الواحدة تماما . وكان هدوؤه كاملا ، وحبس نبضه فإذا هو آية في الانتظام . ومع ذلك فقد ظل يسمع الضجة العجيبة يصحبها وقع أقدام واضح لا لبس فيه . ولبس خفيه واستخرج من أحد الأدراج قارورة صغيرة مستطيلة ، ثم فتح الباب فرأى أمامه مباشرة شيخا فانيا رهيب المرأى يقف في نور القمر الشاحب . كانت عيناه حمراوان كأنهما جمرتين ، وانسدل شعره الأشيب الطويل على كتفيه في ذوائب كأنها السبائك الخام . أما ثيابه العتيقة الزي فقد كانت ممزقة ملطخة ، وتدلت من معصميه ومفصلي قدميه الأصفاد والسلاسل الثقيلة الصدئة . قال مستر أوتيس :

- اسمع يا سيدي ، أنا ألح في أن " تزيت" تلك السلاسل ، وقد

جئتك لهذا الغرض بقارورة صغيرة من زيت تاماني للتشحيم من ماركة الشمس المشرقة ، ويقال إنه يأتي بالأثر المطلوب إذا استخدم مرة واحدة ، وتستطيع إذا أحببت أن تقرأ الكلام المكتوب على القارورة ففيه شهادة من خيرة كهنة بلادنا ، وهاهي القارورة أتركها لك بالقرب من شموع غرفة النوم ، ويسرني أن أزودك بمزيد من هذا الزيت ، إذا كنت بحاجة إليه وما أن فرغ وزير أمريكا المفوض من مقالته هذه حتى وضع الزجاجة على مائدة رخامية وأغلق بابه وأوى إلى فراشه .

ومرت بشبح كانترفيل لحظة وقف فيها واجما من فرط غضبه ثم قذف بالقارورة قذفاً شديدا على الأرض المصقولة وفرّ مجتازاً الدهليز وهو يئن أنيناً رهيباً أجوف ويشع نوراً رهيباً أخضر . ولكن ما أن بلغ قمة السلم العريض المصنوع من خشب البلوط حتى انفتح باب فجأة وظهر منه صبيان صغيران في ثياب بيضاء واندفعت بجوار رأسه وسادة تصفر كأنها الرصاصة المنطلقة وتجسم له أن الخطر يتهدده فبادر إلى الفرار واتخذ البعد الرابع في المكان واختفى في ألواح الحائط ، عاد إلى البيت الهدوء الشامل .

فلما بلغ حجرة خفية في الجناح الأيسر من القصر اتكأ على شعاع قمري ليسترد أنفاسه اللاهثة ، وأنشأ يفكر في الموقف . فما حدث قط أن أساء إليه إنسان قبل هذه الإساءة البالغة طوال عمره المجيد ، وهو ثلاثمائة سنة . وذكر الدوقة الأرملة التي ملأها وهى تقف أمام المرآة كاملة الزينة فانتابتها نوبة عصبية . وذكر الخادمات الأربع الآئي فزعن أيما فزع لأنه تجهم لهن من وراء الستائر في غرفة من الغرف المهجورة ، وما زاد على ذلك شيئا . وذكر أسقف الأبرشية الذي أطفأ شمعته وهو خارج من المكتبة في إعجاز الليل ، فصرع الخوف جنانه وهو لا يزال إلى اليوم في رعاية سير وليم جل يستشفي مما ألم به . كذلك ذكر السيدة العجوز مدام دي تريموياك التي استيقظت ذات صباح في مطلع الفجر فأبصرت هيكلا عظمياً يجلس في مقعد ضخم بجوار المدفأة ويقرأ يومياتها ، فلزمت فراشها ستة أسابيع من هول الصدمة تمزقها الحمى

المخّية ، فلما أبلت من مرضها جددت صلاتها بالكنيسة وقطعتها بالمتشكك الكبير مسيو دي فولتير .

وذكر اللورد الشرير لورد كانترفيل وكيف وجده الناس مختنقاً في حجرته الخاصة وقد حشي حلقه بورقة من أوراق اللعب هى الفاليه البستوني ، واعترف أمام الملأ بأنه قد غش بتلك الورقة عينها تشارلس جيمس فوكس فربح منه خمسين ألف جنيه زورا ، وأقسم أن الشبح لا سواه هو الذي حشا بالورقة حلقة . عادت إلى الشبح أعماله الباهرة واحداً واحداً . فمن كبير الخدم ذلك الذي انتحر بالرصاص في مخزن الطعام لأنه رأى يداً حمراء تنقر زجاج النافذة ، إلى ليدي ستتفيلد الجميلة التي أطبق أصابعه الخمسة الملتهبة حول جيدها ، فترك في جلدها الناصع أثراً لا يمحى مما ألزمها بأن تلبس سوارا من القطيفة السوداء حول عنقها في كل زمان وفي كل مكان لتخفي الأثر ، ثم أغرقت نفسها آخر الأمر في بركة عند طريق الملك . ذكر الشبح انتصاراته المشهودة جميعاً في حماس يشبه حماس الفنان الأصيل الذي يعبد نفسه ويعتز بفنه ، وابتسم متحسراً حين عادت إلى خياله ذكرى آخر مرة لعب فيها دور "روبين الأحمر ، أو الطفل المخنوق" ، وأول مرة لعب فيها دور "جيبيون الناحل ، مصاص الدماء بسهوب بكسلي ." نعم ، ابتسم متحسراً حين عادت إلى خياله ذكرى الضجة الكبرى التي أحدثها يوم رآه الناس في ملعب التنس يلهو بعظامه ويقيم منها أهدافاً يصيبها ،ثم بعد هذا التاريخ الحافل المجيد يأتي قوم من أمريكا لا وزن لهم ،من أبناء هذا العصر ، ويقدمون إليه زيت الشمس المشرقة للتشحيم ويقذفونه بالوسائد! إن هذا لكثير! إن قدرته على الاحتمال لتضيق بكل ذلك . ثم إنه ما من شبح من أشباح التاريخ صادف مثل هذه المعاملة الخشنة . لذلك عقد شبح كانترفيل عزمه على أن ينزل بهم الويل والثبور وعظائم الأمور ، واستغرق في بحار التفكير حتى مطلع الصباح .

الفصل الثالث

في الصباح التالي اجتمع آل أوتيس للفطور وتحدثوا في أمر الشبح طويلا . وطبيعي أن وزير أمريكا المفوض اغتاظ حين رأى أن هديته لم تقبل . قال :

– أنا لا أريد أن أنزل بالشبح أي أذى يحيق بشخصه ، ولكن لا مفر من الاعتراف بأن قذفه بالوسائد تجاوز لحدود الأدب ، هذا إذا راعينا الأجيال الطويلة التي قضاها في هذه الدار .

وكان هذا التعليق على الموقف معقولا . ولكن يؤسفني أن أقول إن التوأمين استقبلاه بالضحك العالي . وأتم مستر أوتيس حديثه فقال :

– فإذا ما رفض استخدام زيت الشمس المشرقة للتشحيم ، فلا مناص من أن تنزع عنه أغلاله ، فالنوم مستحيل مع كل هذه الضوضاء التي تجري خارج حجرات النوم .

ولكن الأسبوع انقضى دون حادث ما ، وكل ما أثار اهتمامهم هو تجدد بقعة الدم على أرض المكتبة ، وما من شك في أن هذه الظاهرة كانت موضع عجبهم لأن مستر أوتيس كان يغلق باب المكتبة بالمفتاح ونوافذها بالمزلاج كل ليلة . وكانت البقعة تصطنع كالحرباء لونا جديداً كل صباح ، مما زاد في عجب العاجبين واستوجب الحديث الطويل في

أمرها . فهي آناً غبشاء الحمرة وهي آناً بلون البرتقال وهي آناً كالأرجوان الصريح .وقد حدث أنهم نزلوا مرة إلى المكتبة لأداء فريضة الصلاة طبقاً لتعاليم الكنيسة الأمريكية الأسقفية الإصلاحية الحرة ، فوجدوها في لون الزمرد الأخضر . وكان طبيعياً أن تكون موضع سمرهم هذه التغيرات الشبيهة بتغيرات ألوان الكاليدوسكوب وكانوا يتراهنون كل مساء على لون البقعة في الصباح التالي . أما فرجنيا فقد كانت لا تشترك في هذا المزاح مع بقية أفراد الأسرة ، وكان يواسيها كثيراً أن ترى بقعة الدم لسبب لا يعلمه أحد ، بل لقد أوشكت أن تبكي جزعاً يوم أن رأتها تصطبغ بخضرة الزمرد .

وظهر الشبح للمرة الثانية ليلة الأحد . فبعد أن انصرف كل إلى فراشه بوقت قليل أفزعتهم قعقعة عظيمة في القاعة فهبوا فجأة من نومهم واندفعوا إلى الطابق السفلي يستطلعون ، فوجدوا حلة حديدية كبيرة من حلل الفرسان العتيقة قد نزعت من موضعها وهوت على الأرض ذات البلاط الحجري ، على حين جلس شبح كانترفيل على كرسي ظهره عال ، ومضى يحك ركبتيه وعلى وجهه إمارات الألم المبرح .وكان كل من التوأمين قد أحضر نبلته ، وسرعان ما سدد كل منهما إليه حصاة بتوفيق عظيم لا يصيبه إلا من اكتسب المرانة الطويلة بضرب معلم الخط في المدرسة .وفيما هما يفعلان ذلك شهر وزير أمريكا المفوض مسدسه وطلب إلى الشبح أن يرفع يديه مسلماً على طريقة أبناء كاليفورنيا! فنهض الشبح وهو يصيح صيحة الحنق وشق بينهم طريقه كأنه قطعة من ضباب ، وأطفأ قنديل واشنطن أوتيس فخلفهم في ظلام كامل . وحين بلغ قمة السلم استعاد جأشه وقرر أن يخيفهم بضحكته الشيطانية المشهورة ، فقد علمته تجاربه السالفة أن هذه الضحكة ناجعة الأثر ، ولقد جرت الرواية بأنها أرعبت لورد ريكر حتى جعلت شعره المستعار يبيض هولاً في ليلة واحدة ، وأنها جعلت ثلاثاً من المربيات اللائي استخدمتهن ليدي كانترفيل يتركن خدمتها ولما يمضي شهر على بدئهن العمل . لذا أطلق الشبح ضحكة نكراء ما في جعبته أشد منها نكراً

تجاوبت أصداؤها في جنبات السقف المقوس العتيق ، وما أن اختفى الرجع الرهيب حتى انفتح من الأبواب باب وخرجت منه مسز أوتيس في روب خفيف الزرقة قائلة :

– إنك لا شك مريض ، ولقد جئتك بزجاجة من محلول الدكتور دوبيلوبيل كنت تشكو من عسر الهضم فستجد فيه الدواء الشافي .

فحملق الشبح فيها والغضب يمزقه .وشرع يتأهب للتجسد في هيئة كلب أسود ،وهى طريقة من طرقه المأثورة ، لجأ إليها مرة فأصيب الأنورابل تومس هورتون عم لورد كانترفيل بعته مقيم ، وطبيب الأسرة يعزو هذا العته لذلك الحادث بصورة قاطعة . ولكنه سمع وقع أقدام تدنو منه فتردد في تنفيذ مراده الخبيث ،واكتفى بأن بعث حوله نورا فوسفوريا خفيفا .وحين صعد التوأمان السلم وأشرفا عليه توارى لفوره عن الأنظار وهو يئن أنينا يشبه أنين المقابر .

فلما أن بلغ غرفته تهافت من فرط الإعياء واستبد به حزن عاصف .فلقد آلمه حقا مسلك التوأمين ،وهو مسلك يدل على الابتذال وسوء التربية ، ولقد حَزت في نفسه ، المادية البشعة التي تجلت في كلام مسز أوتيس ، ولكن فجيعته الأولى جاءت من عجزه عن ارتداء حلة القتال الحديدية .وكان يحسب أن مرأى شبح في حلة القتال يدخل السرور على نفس كل إنسان ،بما في ذلك أمريكي القرن التاسع عشر .كان يحسب أن أمريكي القرن التاسع عشر يسرون برؤية شبح في حلة القتال ،ولو من باب الوفاء لشاعرهم لونجفيلو ، ذلك الشاعر الجميل البيان الساحر المعاني الذي أفنى بمطالعته ساعات السأم وهى طويلة كلما رحل آل كانترفيل إلى لندن .وذكر النجاح العظيم الذي أصابه يوم خرج في حلة القتال إلى جولة كنلويرث سيد الفرسان ،حتى لقد هنأته الملكة العذراء ذاتها . ولكن شيئا ألم به أخيراً فأقعده ، فلقد حاول أن يلبس الحلة في تلك الليلة ولكن الصدر الفولاذي الضخم والخوذة الفولاذية الضخمة ثقلا عليه تماما فهوى على الأرض ذات البلاط الحجري

وتسلخت ركبتاه تسلخا موجعا ورضّت مفاصل يده اليمنى .

وأقعده المرض فلزم غرفته جملة أيام بعد هذا الحادث ولم يخرج منها إلا ليعيد بقعة الدم إلى موضعها بانتظام . ولقد أبل أخيرا بعد أن أحاط نفسه بجميع ضروب العناية ، وانتهى رأيه إلى القيام بمحاولة ثالثة يفزع بها وزير أمريكا المفوض وأسرته . واختار لهذه التجربة يوم الجمعة الموافق ١٧أغسطس ، وحين حل ذلك اليوم قضى الشبح عامة النهار باحثا في مجموعة الملابس التي يملكها عن رداء يناسب المقام وأخيرا انتخب قبعة كبيرة فيها ريشة حمراء وكفنا موشى قرب المعصمين وعند العنق وخنجرا صدئاً . ولما أقبل المساء هبت عاصفة مطيرة وعوت الرياح وزمجرت حتى ارتجت لها نوافذ الدار وقعقعت فكان الشبح أسعد ما يكون في ذلك الجو . وكانت خطته كالآتي : عليه أولا أن يتسلل في هدوء إلى غرفة واشنطن أوتيس ويتمتم عند طرف السرير ويطعن نفسه في موضع الرقبة ثلاث مرات على صوت لحن خفيض . وكان يحقد على واشنطن أوتيس بوجه خاص لأنه كان يعلم أنه المسؤول عن إزالة بقعة الدم المشهورة بدهان بنكرتون الأصلي العجيب . وما أن يفزع ذلك الشاب المجازف الطائش ويفتك بجنانه حتى ينتقل من ثم إلى الغرفة التي ينام فيها وزير أمريكا المفوض وزوجته وهناك يضع على جبين مسز أوتيس راحته الباردة ، ويهمس في أذن زوجها المرتعد بحديث الجيف والقبور . أما فرجنيا نيا الصغيرة فلم يدر ما يفعل بها ، فهي ما أ ساءت إليه قط . ثم إنها كانت جميلة دمثة الطباع ، ويكفيه إذاً أن يزعجها بآهات جوفاء يرسلها من داخل الدولاب . فإذا لم تكف الآهات الجوفاء لإيقاظها فلا بأس من أن يجذب غطاء السرير بأصابع محمومة تنقبض وتنبسط . ولكنه وطن نفسه على أن يعلم التوأمين درسا لا ينسيانه ، وأول ما ينبغي عليه عمله بطبيعة الحال هو أن يجلس على صدريهما حتى يختنقا اختناق صاحب الكابوس ، ثم يقف بين سريريهما المتقاربين في هيئة جيفة خضراء باردة كالثلج حتى يصرعهما الخوف ، وحين يفرغ من كل ذلك ينزع

عنه كفنه ويزحف في أرجاء الغرفة فتبرز في الظلام عظامه البيضاء وتلمع عين له واحدة زائغة . وخلاصة القول إن عليه أن يمثل أمامهما دور "دانيال الأخرس أو هيكل المنتحر" هو دور عظيم الأثر لعبه مرارا فنجح فيه نجاحا كبيرا ، وهو دور لا يقل هولا عن الدور الأكبر الذي طار صيته في الآفاق ألا وهو دور" مارتن المجنون أو اللغز المقنع ."

ودقت الساعة العاشرة والنصف ،وسمع أفراد الأسرة يأوون إلى حجراتهم ، وأزعجه الضحك العصبي العالي الذي كان يخرج من غرفة التوأمين وقتاً ما ، فقد كان التوأمان يلهوان قبل النوم في مرح الصبيان الذين لا يفهمون معنى الأحزان . ولكن ما أن بلغت الساعة الحادية عشرة والربع حتى شمل قصر كانترفيل سكون مطلق ، وما أن دقت الساعة تؤذن بانتصاف الليل حتى خرج من مكمنه .وارتطمت البومة بزجاج النوافذ وفي شجرة السرو العتيقة نق الغراب وناحت الريح حول الدار كأنها روح ضائعة .

ولكن آل أوتيس ناموا هنيئا لا يستشعرون مصيرهم الجلل ، ورغم الزعزع الهوجاء والمطر المدرار استطاع الشبح أن يسمع وزير أمريكا المفوض يغط غطيطاً عالياً منتظما . وانسل خارجا من ألواح الحائط وعلى فمه المغضن القاسي ابتسامة شيطانية تنبئ بشر مستطير ، وغطى القمر وجهه بغيمه هلعا حين مر الشبح بالنافذة البارزة الجسيمة التي نقشت عليها صورة ذراعيه وذراعي زوجته القتيل بماء الذهب واللازورد . وانساب الخيال الشرير لا يثنيه عن سيره شيء ، بغيض الهيئة حتى لقد أشفقت منه الظلمة الجاثمة . وفيما هو يسعى ظن أن مناديا يناديه فكف عن السير ، ولكن ما سمع إلا نباح كلب في الحقل الأحمر فأستأنف المسير وهو يتفوه باللعنات بلغة أهل القرن السادس عشر ، شاهرا خنجره الصدئ في ظلام الليل على كل شيء ، متأهبا للانقضاض في ظلام الليل على كل شيء . وأخيرا بلغ من الدهليز الركن الذي يفضي إلى غرفة واشنطن المسكين . وتوقف لحظة وطارت ذوائبه الطويلة الشيباء مع الريح حول رأسه ، وطوت الريح كفنه المرعب في أشكال

خرافية مخيفة . ثم دقت الساعة الربع فأحس بحلول الميعاد وصدر من فمه صوت يدل على السخرية ، ودار حول الركن ، ولكن ما أن فعل ذلك حتى تراجع معولا إعوالا أليما من فرط رعبه وأخفى وجهه الأبيض في عظام كفيه ، فقد رأى قبالته طيفا مخيفا ثابتا كالتمثال المنحوت ، بشعا كأحلام المجانين! كان رأسه الأصلع يبرق في الظلام وكان وجهه الأبيض ممتلئا مستديرا ، وقد التوى محياه كمن كان يضحك ضحكة الأبالسة فبدا عليه عبوس مقيم . ومن عينيه انسابت أشعة حمراء فاقعة الحمرة ، أما فمه فكان بئرا فسيحا من النيران الحامية ، وكان يأتزر بثوب قبيح في بياض الثلج يشبه كفنه ، ثوب كسا قده العملاق ، وعلى صدره لوحة خطت عليها عبارات غريبة كتبت بحروف قديمة ، خالها سجل مخازيه أو صفحة خطاياه الشائنة أو طرس جرائمه ، وقد رفع بيده سيفا من الفولاذ اللماع .

ارتد الشبح خائفا لأنه لم يسبق له أن رأى شبحا .وألقى على الطيف الشائه نظرة عجلي . ثم عاد إلى غرفته يتعثر في كفنه وهو يجتاز الدهليز مسرعا ، وأخيراً أسقط خنجره الصدئ في حذاء مستر أتيس الطويل حيث وجده كبير الخدم في الصباح . فلما أن خلا إلى نفسه في جناحه الخاص ألقى بنفسه على سرير صغير الحجم ،وأخفى وجهه تحت الغطاء جزعا . ولكن شجاعة آل كانترفيل المأثورة عادت إلى الشبح بعد قليل وعزم على البحث عن الشبح الآخر بعد مطلع النهار والتحدث إليه . فلما بزغ الفجر وكسا التلال بالفضة عاد إلى الموضع الذي شاهد فيه الطيف المفزع أول مرة ، وأخذ يمني نفسه بأن صديقه الجديد سوف يعينه على ترويض التوأمين دون أن ينزل به أذى .فلما بلغ المكان رأى ما ملأه إشفاقا ، فقد تغير الشبح ، فانطفأت عيناه الفارغتان تماما وسقط من يده السيف اللامع واستند إلى الحائط على نحو مضن . فاندفع إليه وأمسك بذراعه ،ولكن شد ما أرعبه أن يرى رأسه ينفصل عن جسده ويهوي على الأرض وأعضاءه تميل إلى الجدار ، وألفى نفسه ممسكا بستارة بيضاء صغيرة جميلة من ستائر السرير ، وعند قدميه

فرشاة من فرش البلاط وأداة من أدوات المطبخ وواحدة من اللفت مجوفة! وعجز عن تفسير هذا التحول العجيب فتناول اللوحة بسرعة جنونية واستطاع أن يتبين فيها هذه العبارات الرهيبة على ضوء الصباح الأشهب :

شبح أوتيس

هو الشبح الحقيقي الوحيد

فاحذروا من التقليد

كل ما عداه زائف

وأدرك مغزى هذه العبارات . أدرك أنهم قد احتالوا عليه وسخروا منه ومكروا به . فغضب أيما غضب ولمع في عينيه بريق لا يلمع إلا في عيون آل كانترفيل الصناديد وجرش أسنانه ، بل جرش لثته فقد كان بلا أسنان ، ورفع يده الذابلة إلى هامته وأقسم بلغة أهل الزمان الغابر وهي جميلة ليسفكن الدماء غزارا وليدعوا عزرائيل ليمشي في جنبات الدار عند صياح الديك .

وما أن تم قسمه الرهيب حتى سمع ديكا يصيح من فوق بيت بعيد أحمر السقف معلنا مجيء الفجر . فضحك ضحكة طويلة خفيضة ، ولكنها ضحكة مرة ، وانتظر ولكنه انتظر الساعة بعد الساعة دون أن يسمع للديك صياحا ثانيا ، ولم يعرف لذلك سبب . ولبث هكذا في مكانه ساهرا مترصدا حتى دخلت عليه الخادمات في الساعة السابعة والنصف فيئس من ترصده وكف عنه وانصرف إلى غرفته يمشي مشية المتغطرس وهو يفكر فيما كان من أمر قسمه المهدور وعزمه الذي طاش . وفي غرفته رجع إلى بعض الكتب التي تبحث في الفروسية القديمة كان شديد الكلف بها ، فعلم أنه ما من مرة أطلق فيها هذا القسم إلا وصاح الديك مرتين .

فقال محدثا نفسه :

– ويل لهذا الديك العابث . كيف يفعل بي ذلك وأنا الذي كنت في الماضي أستطيع أن أغمد في رقبته رمحي وألزمه بأن يصيح لي ولو كان في حشرجة الموت! ثم أوى إلى نعش وثير صنع من الرصاص ، وفيه رقد حتى المساء .

الفصل الرابع

في اليوم التالي صحا الشبح مهدم العظام واهن القوى .فالأحداث الرهيبة التي ألمت به في الأسابيع الأربعة الفائتة قد أخذت تزعزع من كيانه .وتحطمت أعصابه تماما ،فكان أتفه الأصوات يزعجه . وقبع في غرفته خمسة أيام ، وعزم آخر الأمر على إغفال بقعة الدم التي كان يجددها كل ليلة على أرض المكتبة . من البديهي أن آل أوتيس لا يستحقون أن يكون لهم مثل هذا الشرف لأنهم لا يرغبون فيه . وقدا اتضح له أنهم قوم يعيشون على مستوى مادي سافل ويعجزون عن تقدير ما لأمثال هذه الظواهر المحسوسة من قوة رمزية . أما مسألة الأشباح المترائية وتطور الأجسام الخيالية فهي أمور أخرى لا حيلة لها فيها . فقد كان من واجباته المقدسة أن يظهر في الدهليز مرة من كل أسبوع ويتمتم من مكانه عند النافذة البارزة الجسيمة في الأربعاء الأول والثالث من كل شهر ، ولم يدرك كيف السبيل إلى الفكاك من التزاماته دون أن يهدر شرفه . فما من شك في أن حياته كانت مثالا للبغي ،ولكنه كان آية للوفاء في جميع صلاته بالعالم العلوي . لهذا كله اجتاز الدهليز في أيام السبت الثلاثة التي أعقبت ذلك ،كعادته بين منتصف الليل والساعة الثالثة ، وكان أشد ما يكون حرصا على أن لا

يراه أو يسمعه إنسان ،فخلع نعليه واسترق الخطى استراقا على الأرض الخشبية البالية التي أتلفت ألواحها الديدان ولبس معطفا فضفاضا من المخمل الأسود ،ولم ينس أن يزيت أغلاله بزيت الشمس المشرقة . ولابد لي أن أعترف بأنه لم يلجأ إلى هذه الطريقة الأخيرة لحماية نفسه إلا بعد تردد شديد . وقد اغتنم فرصة اجتماع الأسرة للعشاء ونفذ إلى غرفة مستر أوتيس وسرق الزجاجة منها . وأحس بالخجل بادئ الأمر ،ولكن كفة العقل رجحت فيه أخيرا واقتنع بما لهذا الزيت من فوائد جمة ، ولقد انتفع به فعلا إلى حد ما . على أن هذا الاحتياط كله لم يغنه شيئا كثيرا ، فقد مدت في طريقه الحبال بعرض الدهليز في كل جولة ، فانكفأ على وجهه المرة بعد المرة . وقد حدث ذات ليلة أنه خرج مستخفياً في زي "اسحق الأسود أو صياد هوجلي وودز" فسقط سقطة موجعة لأن التوأمين قد طليا بالزبد المسافة الواقعة بين قمة السلم وباب الغرفة التي تستخدم لحفظ المنسوجات الملونة . وقد غضب لهذه الإساءة الأخيرة غضبا لا مزيد عليه .فرأى أن يبذل آخر مجهود يثأر به لكرامته ومكانته ،وقرر أن يزور هذين التلميذين الوقحين في الليلة التالية مستخفيا في الزي المشهور زي"روبرت المجازف أوالنبيل المفصول الرأس" .

وكانت آخر مرة اتخذ فيها هذا الزي منذ سبعين عاما ،أي منذ أن أفزع به السيدة الجميلة ليدي باربارا موديش حتى فسخت خطبتها مع جد لورد كانترفيل الأخير ، وفرت مع جاك كاسلتاون الوسيم الطلعة إلى جرتنا جرين .أعلنت يومها في الناس أنه ما من قوة على الأرض تستطيع إجبارها على الزواج من رجل تسمح أسرته لمثل هذا الطيف العبوس أن يجوس خلال الشرفة عند الشفق .وقد مات جاك المسكين قتيلا برصاص لورد كانترفيل في مبارزة تمت في حديقة واندويرث . أما ليدي باربارا فقد ماتت غما ولما ينصرم العام في تنبر يدج ولز .ولا شك أن تتابع المآسي على هذا النحو كان نصرا للشبح عظيما وآية على أن هذا الزي من أقوى الأزياء فعلا في نشر الرعب . ولكنه كان زيا صعبا

جدا لدقة ما يستلزمه من"مكياج" إذا جاز لي أن أستعير هذا الاصطلاح من لغة المسرح لأصف به حدثا جللا في العالم العلوي أي في عالم ما وراء الطبيعة بتعبير أهل العلم . ولم يفرغ الشبح من تخفيه قبل مضي ثلاث ساعات .وأخيرا انتهى إعداد كل شيء وسر الشبح بمرآه سرورا عظيما . وكان حذاء الركوب الطويل المصنوع من الجلد الذي ارتداه لهذه المناسبة أكبر من قدميه قليلا ؛ كذلك بحث مع الغدارتين فلم يجد منهما إلا غدارة واحدة ؛ ولكنه رغم ذلك كان راضيا أتم الرضى وحين بلغت الساعة الواحدة والربع انساب من ألواح الحائط واجتاز الدهليز متسللا . فلما وصل إلى غرفة التوأمين التي كانت تعرف بالغرفة الزرقاء للون ستائرها ،وجد بابها مفتوحا بعض الشيء وأراد أن يدخل دخولا مؤثرا فدفعه فجأة فانفتح على مصراعيه ، ولكن إبريقا كبيرا من الماء انسكب على جسده فابتل كل ما فيه وكاد الإبريق يصيب كتفه الأيسر إلا أنه سقط على بعد بوصات قليلة .وسمع في تلك اللحظة ضحكا حادا مختنقا آتيا من ناحية السرير ذي الأعمدة الأربعة .وشد ما اضطربت أعصابه حتى لقد فر إلى غرفته بأقصى ما يملك من سرعة ،واعتصم بها وجاء اليوم التالي فإذا به طريح في فراشه من أثر برد شديد أصابه ، ولولا أنه قد قصد إلى غرفة التوأمين بغير رأس لتعرض لأوخم النتائج .

ويئس من إخافة هذه الأسرة الأمريكية قليلة الذوق يأسا نهائيا ، وقنع بالتسلل في الدهاليز مرتديا خفين وكوفية صفيقة حمراء يستر بها عنقه لتحميه من تيارات الهواء ، حاملا قوسا وسهاما صغيرة خشية أن يعتدي عليه التوأمان .وكان آخر ما حاق به من النكبات ما حدث له في التاسع عشر من شهر سبتمبر .فقد هبط إلى البهو المترامي عند مدخل الدار وكان يحسب أنه سوف يكون في أمان مطلق ، هناك على الأقل ،وأنشأ يروح عن نفسه بالسخرية من الصور الفوتوغرافية المعلقة وهى صور تمثل وزير أمريكا المفوض وزوجته ، وقد وضعت مكان صور آل كانترفيل . وكان رداؤه بسيطا ولكنه مرتب فقد لف حول أعطافه

كفنا مستفيضا عليه نقط خضراء من عفن القبور وربط فكيه بقطعة من التيل الأصفر ، وكان يحمل مصباحا صغيرا ومجرفة . وعلى الجملة فقد كان مستخفيا في زي "يونس الذي لا قبر له أو خاطف الجثث الذي يسكن جرن تشرتسي" وهو دور من خيرة أدواره التي يمثلها ،ولقد مثله مرة مع آل كانترفيل فلم ينسوه مدى الحياة لأنه أدى إلى المجافاة التي حدثت بينهم وبين جارهم لورد رفورد . وكانت الساعة وقتئذ الثانية صباحا ، وكان على يقين من أن أهل الدار قد هجعوا . وفيما هو يمشي في طريقه إلى المكتبة ليرى ما آلت إليه بقعة الدم بعد إهمالها ، انقض عليه الغلامان من ركن مظلم وطفق كل منهما يلوح بيديه عاليا في حركة مخيفة وصرخا في أذنه بصوت واحد : "بخ!"

واستولى عليه الذعر ، وأي مخلوق في موقفه لا يذعر! وبادر يلتمس السلم ولكنه وجد واشنطن أوتيس في انتظاره هناك حاملا الأداة التي يقتل بها البستاني الحشرات في الحديقة ، فلما ألفى نفسه محاصرا بأعدائه من جميع الجهات ولم يبق أمامه إلا الدفاع عن حياته اختفى في المدفأة الحديدية الضخمة ،وهكذا عاد إلى غرفته خلال المداخن والثقوب . وبلغها متسخ الثياب لا حد لقذارته مضطرب الهيئة لا حد لاضطرابه ، يائس النفس لا حد ليأسه .

ولم يره أحد بعد ذلك يتجول ليلا .ولقد سهر التوأمان في انتظاره جملة مرات ونثرا الدهاليز كل ليلة بقشر الجوز مما أغضب الوزير وزوجه وخدم الدار ولكن جهدهما ذهب أدراج الرياح . لقد طعن الشبح في شعوره فأضرب لذلك عن الظهور وكان من أثر اختفائه أن عاد مستر أوتيس إلى إتمام كتابه العظيم عن تاريخ الحزب الديمقراطي ،وهو الكتاب الذي استنفد منه الأعوام الطوال .كذلك نظمت مسز أوتيس من الولائم العظيمة ما أذهل أهل المقاطعة جميعا وذهب الغلامان يلعبان لاكروس واليوكر والبوكر وما شاكل ذلك من الألعاب القومية عند الأمريكيين ، أما فرجنيا فقد كانت تخرج على مهرها في رفقة دوق تشيشاير الصغير الذي هبط كانترفيل ليقضي بقية عطلته فيها وكانا يجوسان خلال الطرق

سويا . وظن الجميع أن الشبح قد غادر القصر ،بل لقد كتب مستر أوتيس إلى لورد كانترفيل رسالة بهذا المعنى فرد عليه اللورد معبرا عن سروره البالغ مهنئا زوجة الوزير بهذا الحدث أصدق تهنئة .

ولكن آل أوتيس كانوا واهمين فيما ذهبوا إليه ، فلقد كان الشبح لا يزال مقيما بالدار ولقد كاد يلازمه المرض حقا ولكنه ما كان لينسى ما ألم به من محن بفضل هذه الأسرة ، وتحركت أشجانه خاصة حين عرف أن دوق تشيشاير نزيل من نزلاء الدار وذكر ، كيف أن عم جده ، لورد فرانسيس ستلتون ، راهن الكولونيل كابوري بمقدار مائة جنيه على أن يلعب الزهر مع شبح كانترفيل ، فوجده الناس في صباح اليوم التالي منبطحا على الأرض في غرفة الورق وقد أصابه فالج تركه بين الموت والحياة بقية عمره الطويل . وأدركه عيّ جعله لا يتفوه بشيء إلا كلمة "دشّ" حتى يوم وفاته . وذاع أمر هذه القصة وقتئذ ، ولكن الحقيقة أخفيت قدر المستطاع تقديرا لشعور الأسرتين الكريمتين ، ومن أراد أن يطلع على تفاصيل ذلك الحادث وجد وصفا له شافيا في الجزء الثالث من كتاب لورد تاتل : "ذكرياتي عن الوصي على العرش وخلآنه" أقول لما علم الشبح بأن دوق تشيشاير قد نزل ضيفا على آل أوتيس ، رغب بطبيعة الحال في أن يثبت للناس أن سلطانه على آل ستيلتون لا يزال باقيا وكانوا من أصهاره الأبعد ين ، فبنت عمه تزوجت مرتين وكان زوجها الثاني ، السيد دي بوكلي ، ودوق تشيشاير من نسل هذا السيد كما يعلم جميع الناس . وعلى هذا أعد الشبح نفسه للظهور في زي مشهور هو زي "الراهب شارب الدماء أو الناسك الخالي من الدماء في دير القديس بندكت" ، لعله بذلك يخيف عاشق فرجنيا الصغير . وكان هذا الزي مفزعا حقا ، حتى لقد رأته ليدي ستارتب العجوز ذات مرة في عشية عام ١٧٦٥ فصرخت صراخا مرا انتهى بنوبة صرع شديدة ، وماتت بعد ثلاثة أيام . وقد حرمت آل كانترفيل من ميراثها ، وأوصت بكل ما تملك للصيدلي الذي كان يمدها بالدواء من لندن . ولكن الشبح رغم ذلك لم يظهر ، فقد خشي أذى التوأمين ولزم

غرفته ، ونام الدوق الصغير في أمان يحلم بفرجينيا تحت المظلة الفاخرة المحلاة بالرياش بالغرفة الملكية .

الفصل الخامس

مرت بضعة أيام خرجت بعدها فرجنيا وفارسها ذو الشعر المجعد يتجولان على مهريهما في مراعي بروكلي . وقد تمزق ثوبها أشد تمزيق وهي تحاول اختراق سور من الأسوار ، حتى لقد رأت أن تدخل الدار عند عودتها من الباب الخلفي حتى لا يبصر أحد ما آلت إليه حالتها . وفيما تعدو مجتازة غرفة الستائر المصورة خيل إليها أنها لمحت بداخلها شخصا فقد كان بابها مفتوحا ، وحسبت أنها وصيفة أمها ،التي اعتادت أن تعتصم بتلك الغرفة كلما أرادت أن تنجز قطعة من شغل الإبرة .ودخلت فرجنيا لتطلب إلى الوصيفة أن تصلح لها ما تمزق من ثوبها ،وشد ما عجبت حين وجدت نفسها أمام شبح كانترفيل ذاته! وكان الشبح جالسا بجوار النافذة يطل منها على قشور الشجر الدارس تتطاير كأوراق الذهب في الهواء ، وأوراق الشجر الدارس تتراقص حمراء مجنونة بطول الطريق الظليل . وكان يسند خده بيده ، وكان مظهره العام ينبيء بضيق لا يحتمل . بل لقد بلغ من حزنه وانكساره أن فرجنيا الصغيرة التي أوشكت أن تبادر بالفرار إلى غرفتها وتوصدها دونه عدلت عن ذلك لأن فؤادها رق لحاله وعوّلت على ملازمته للتفريج عن نفسه . بلغ من خفة خطوها وعمق تأمله الحزين أنه لم يحس بوجودها حتى خاطبته قائلة :

- كم أرثي لحالك ، ولكن لا تبتئس فأخواي عائدان الغداة إلى إيتون ،ولو حسن سلوكك فلن يضايقك أحد بعد الآن .

فالتفت إليها متعجبا لشجاعة هذه الصبية الصغيرة المليحة التي تجاسر على مخاطبته ، وقال :

- سخف أن يطلب الّي تحسين سلوكي .نعم ، سخف ما بعده سخف ،إذ لا بد لي من الصلصلة بأغلالي والأنين من خروق المفاتيح والتجوّل ليلا ، إذا كان هذا ما تقصدين .فأنا ما وجدت إلى لأفعل ذلك .

- بل ما وجدت لتفعل شيئا من ذلك ، وأنت تعلم أنك قد أسرفت في فعل الشر . ولقد روت لنا مسز أمني في أول يوم هبطنا قصر كانترفيل أنك قد قتلت زوجتك .

قال الشبح في استكبار :

- نعم أعترف بأني فعلت ذلك ،ولكن هذه مسألة من صميم أمور الأسرة ، وهى لا تخص أحدا ما .

وكانت فرجنيا من وقت إلى آخر تكشف عن طوية بروتستانتية متشدده ورثتها عن جد من أجدادها كان يقيم في نيوإنجلند فقالت :

- القتل خطأ فاحش أيا كان الدافع إليه .

- كم أبغض هذه المجردات الأخلاقية ، وكم أبغض قسوتها على النفس! إنها لقسوة رخيصة . فلقد كانت زوجتي لا تجيد شيئا . نعم كانت تهمل إعداد ملابسي وكانت تجهل كل مبادىء الطهي . وإني لأذكر يوم جئتها بصيد اقتنصته من غابات هوجلي فعبثت به عبثا ما بعده من عبث . ولكن دعينا من هذا الآن فقد مضى وانقضى . ثم إن أخواها حرماني من الطعام بعد أن قتلتها حتى فاضت روحي . فهل هذا من الإنصاف في شيء ؟

– أحدث هذا حقا ؟ إذا فأنت الآن جائع يا سيدي الشبح ، أقصد يا سيدي السير سيمون . إن في حقيبتي قطعة "ساندوتش" فهل آتيك به ؟

– شكرا لك ، ولكني لا آكل الآن شيئا .ومع كل فهذا ظرف منك شديد ، وأنت من طينة أخرى غير طينة أسرتك الشنيعة السفيهة المبتذلة التي لا تعرف معنى الأمانة .

فصاحت به فرجنيا قائلة :

– صه! إنما أنت الشنيع السفيه المبتذل . أما عن الأمانة فأنت تعلم حق العلم أنك قد سرقت ألوان الرسم من صندوقي لتجدد بها تلك البقعة السخيفة التي ترسمها على أرض المكتبة . وقد استوليت أولا على كل ما أملك من لون أحمر ويدخل في ذلك البرتقالي ، فلم أجد ما أرسم به الطبيعة وقت الغروب . ثم استوليت على الأخضر الزمردي والأصفر الكرومي ولم تبق لي على شيء إلا النيلة واللون الأبيض الصيني ، وهذه لا نفع فيها إلا رسم المناظر التي تسبح في نور القمر ، وهى مناظر تبعث الضيق في نفس رائيها ، وهى مناظر صعبة التصوير ، ومع كل ذلك لم أفش لأحد سرك . نعم لم أفش سرك رغم غيظي الشديد ورغم سخافة تفكيرك . فهل سمع أحد ببقعة من الدم في لون الزمرد الأخضر ؟

وقال الشبح بوداعة :

– لم تكن لي في ذلك حيلة ، فالحصول على الدم ليس أمرا ميسورا في هذه الأيام ، وقد بدأ أخوك التحدي بما يسميه دهان بنكرثون العجيب فلم أجد ما يمنعني من أن أستخدم ألوانك . أما لون البقعة فهذه مسألة أذواق ، وآل كانترفيل مثلا دمهم أزرق ، بل أشد زرقة من أي دم في إنكلترا . ولكنكم معشر الأمريكيين لا تكترثون لمثل هذه الأمور كثيرا .

- أنت تجهل كل شيء عنا ، وأنصحك أن تهاجر إلى أمريكا لتتسع ثقافتك . ولن تكلفك الرحلة بنسا واحدا لأن أبي سيتوسط لنقلك بالمجان عن طيب خاطر . ومع أن الضريبة على الأشياء الروحية عالية جدا إلا أن موظفي الجمرك جميعا من أنصار الحزب الديمقراطي ، وهذا أدعى للتساهل .فإذا ما هبطت نيويورك فالمستقبل أمامك مفتوح ، ولسوف تصيب نجاحا منقطع النظير ، فأنا أعرف أن في نيويورك أناسا على استعداد لأن يدفعوا مائة ألف دولار ليحصلوا على جد ومائتي ألف دولار ليكون لأسرتهم شبح .

- أعتقد أن أمريكا لن تناسب ذوقي .

قالت فرجنيا تتهكم به :

- إن أمريكا لن تناسب ذوقك لخلوها من الأطلال .

أجاب الشبح قائلا :

- هذا غير صحيح ، فقد نسيت البحرية الأمريكية ونسيت سلوككم .

- طاب مساؤك إذا . سوف أطلب إلى أبي أن يمد في عطلة التوأمين أسبوعا آخر .

فصاح الشبح قائلا :

- أرجوك ألا تنصرفي يامس فرجنيا فلقد قتلتني الوحدة وأنا في شقاء لا يوصف ، فلست أدري أي طريق أسلك . وأنا أرغب في النوم ولكنه يمتنع عليّ .

- هذا هراء ، فكل ما عليك أن تفعله هو أن تأوي إلى مخدعك ثم تطفئ الشمعة . إن اليقظة أصعب من النوم وخاصة في الكنيسة . النوم في متناول كل مخلوق ، وحتى الأطفال يعرفون كيف ينامون ، فالمسألة كما ترى لا تحتاج إلى ذكاء .

قال حزينا :

– أنا لم أذق للنوم طعما منذ ثلاثمائة سنة . نعم ، لم أذق النوم منذ ثلاثمائة سنة ، وأنا جد متعب .

فحملقت فيه عينا فرجنيا الزرقاوان الجميلتان عجبا ، وبدا عليهما الحزن الشديد وارتجفت شفتاها كما ترتجف أوراق الورد وسعت إليه وجثت بجواره وتصفحت وجهه الذابل البالي وقالت :

– يا لك من شبح مسكين! ألا تجد مكانا تنام فيه ؟

أجاب بصوت حالم منخفض :

– هناك حديقة صغيرة وراء غابة الصنوبر بأميال وأميال ، وفي تلك الحديقة تنمو الحشائش الطويلة بغزارة والأزهار السامة تبدو كأنها النجوم الجسيمة البيضاء ويغني البلبل طول الليل . نعم ، يغني البلبل طوال الليل ويطل القمر البلوري وتظل شجرة السرو النائمين بالفيء المديد .

وتجمعت العبرات في عيني فرجنيا وأخفت وجهها في راحتيها وهمست قائلة :

– هذه حديقة الموت . نعم حديقة الموت . فالموت كما ترين جميل . جميل أن تصغي الى السكون . جميل أن يمحى أمسك وغدك . جميل أن ترقد تحت الأرض الناعمة السمراء والحشائش تهتز في مسرى النسيم فوق رأسك . جميل أن تنسى الزمن وأن تنسى الحياة . جميل أن يحل عليك السلام . وأنت تستطيعين انقاذي مما أنا فيه من عذاب بأن تفتحي لي باب الموت .

وارتجفت فرجنيا ومشت في أعطافها رعشة باردة ولم تجد ما تقوله فخيم الصمت لحظات ، وحسبت أنها تمر بحلم مزعج .

ثم عاد الشبح إلى الكلام وجاءها صوته كنواح الريح . قال :

- أما قرأت النبوة القديمة المخطوطة على نافذة المكتبة ؟

قالت الفتاة وهى تنظر إليه :

- نعم كثيرا ما قرأتها ، وأنا أعرفها جيدا ، فهي منقوشة بحروف غريبة سوداء وقراءتها عسيرة . وليس على النافذة إلا ستة سطور هي :

لـــن يـــحـــل عــلـــى الـــدار الـــســـكـــون
حـــتى تســـتـــخلص فـــتـــاة لـهـــا نضـــرة الربيع
صلوات التـــــوبة من شـــــفـــــتي آثم .
ولن يحل على كـــانتـــرفـــيل الســـلام
حـــتى تثـــمـــر شـــجـــرة اللوز العـــقـــيم
وتذرف طفلة بريئـــة دمـــوعـــهـــا .

ولكن لا أفهم معنى هذه الكلمات .

فأجاب الشبح بنفس حزينة :

- معناها أن عليك أن تندبي معي خطاياي فما أملك البكاء وأن تستغفري معي لذنوبي فما أملك الإيمان الذي يعود بالغفران ، ولسوف يرحمني عندئذ ملاك الموت إذا كانت حياتك الماضية كلها خير ورقة وحنان . ولسوف تسمعين في الظلام همسا كهمس الفاجرين ولكن لن يصيبك من هذه ولا تلك أذى فقوى الجحيم تقف مشلولة أمام براءة الأطفال .

ولم تجب فرجنيا ، وأنشأ الشبح يعصر كفيه عصرا في يأس قاتل وهو يتأمل رأسها الذهبي المنحني ، ونهضت فجأة شاحبة المحيا ولكن يلمع في عينيها بريق غريب وقالت بشجاعة :

- لست بخائفة ، ولسوف أسال الملاك أن يختصك برحمته .

ونهض الشبح من مكانه وهو يصيح صيحة خافتة هي صيحة

الفرح ، وأمسك بيدها وانحنى كما كان يفعل أهل الزمان الغابر وقبلها قبلة جميلة . وكانت أصابعه باردة كالثلج وكانت شفتاه تحترقان بنار حامية ، ولكن فرجنيا لم تتردد بل سارت خلفه تجتاز الغرفة الكئيبة . وكان على الستائر الملونة نقوش صغيرة تمثل الصيادين . ونفخ الصيادون في صورهم ذات الشراريب الصغيرة ولوحوا لها بأيديهم الصغيرة أن تكف عن السير وصاحوا بها قائلين :

- عودي ، ألا عودي يا فرجنيا الصغيرة .

ولكن الشبح شدد القبض على يدها فأطبقت عينيها دون ما ترى ونظرت إليها تستوقفها أفراد من الحيوان ذات أذناب كأذناب السحالي وذات عيون جاحظات ، كانت تختبئ في المدفأة وقالت :

- الحذار يا فرجنيا الصغيرة ، الحذار ، فقد تختفين إلى أبد الآبدين .

ولكن الشبح انساب مسرعا ولم تستمع فرجينيا لهذا النذير . فما أن بلغا طرف الغرفة حتى وقف الشبح وتمتم بكلمات لم تفهم لها معنى ، وفتحت عينيها فرأت الحائط يختفي كأنه طبقة من ضباب ، ووجدت أمامها كهفا أسود غائرا . وهبت حولها ريح صرصر باردة ، وأحست بشيء يجذب ثوبها وسمعته يقول : "عجلي ، عجلي ، وإلا فات الأوان" وفي لحظة انطبقت خلفهما ألواح الحائط ، وعادت الغرفة فارغة موحشة .

الفصل السادس

لم تمض عشر دقائق بعد ذلك حتى دق الجرس معلنا حلول موعد الشاي . ولما وجدت مسز أوتيس أن فرجنيا لم تحضر أرسلت أحد الخدم لتذكيرها . وعاد الخادم بعد دقائق وهو يقول إنه لم يعثر لمس فرجنيا على أثر في أي مكان . وكان من عادات فرجنيا أن تخرج إلى الحديقة مساء لتقطف بعض الأزهار التي تزين بها المائدة قبل العشاء فلم تنزعج مسز أوتيس لهذا الخبر أول الأمر . ولكن حين دقت الساعة السادسة ولم تعد فرجنيا بدأ اضطرابها وأرسلت الغلامين ليبحثا عنها خارج الدار وطافت بالحجرات واحدة بعد أخرى مع زوجها . وعاد الغلامان حين بلغت الساعة السادسة والنصف وقالا إن بحثهما كان غير مجد . وشمل القلق الجميع وصاروا لا يعرفون كيف يتصرفون ثم تذكر مستر أوتيس فجأة أنه أذن منذ أيام لفريق من الغجر بأن يضربوا خيامهم في مشارف الدار . فخرج لفوره بصحبة ولده الأكبر وأثنين من الفلاحين وقصدوا إلى بلاكويل هولو حيث حط الغجر رحالهم كما كان يعلم . ورجاهم الدوق الصغير ، دوق تشيشاير ، أن يأذنوا له بالخروج معهم فقد كاد صوابه أن يطيش من فرط قلقه ، ولكن مستر أوتيس لم يأذن له بذلك لأنه كان يتوقع نشوب معركة لاسترداد ابنته . فلما أن بلغ مضارب الخيام وجد أن الغجر رحلوا ، وعلم أن رحيلهم كان مفاجئا إذ أبصر نارا لا تزال موقدة وأطباقا لا تزال ملقاة على الأرض . وأوفد مستر أوتيس

واشنطن والفلاحين لينقبوا في بقية أنحاء المنطقة ، أما هو فعاد إلى داره عدوا وأبرق إلى جميع مفتشي الشرطة في المقاطعة سائلا إياهم أن يبحثوا عن بنت صغيرة خطفها الغجر أو خطفها المتشردون . ثم طلب جواده وأصر أن تتناول زوجته والتوأمان عشاءهم كالمعتاد ، فلما جيء بالجواد خرج مع أحد السائقين في طريق أسكوت . وما أن ركب ميلين حتى سمع جوادا يركض في إثره ، والتفت إلى الوراء فرأى الدوق الصغير يتبعه على مهر محتقن الوجه عاري الرأس . وقال الصبي لاهثاً :

– أنا آسف لمجيئي يا مستر أوتيس ، ولكني لن أستطيع أن أتناول أي طعام حتى نعثر على فرجنيا ، فأرجوك ألا تغضب مني ولو أنك وافقت على خطبتنا في العام الماضي لما حدث شيء من هذا . أرجوك يا مستر أوتيس ألا تأمرني بالعودة ، فإن أمرتني فلن أطيع .

– وابتسم الوزير المفوض على الرغم منه لمرأى هذا الصبي الوسيم وتأثر أيما تأثر حين رأى إخلاصه فرجنيا ، فمال وربت على كتفه بحنان وقال :

– إذا كنت ترفض العودة ياسسيل فلا مفر من بقائك معي . ولكن لا بد أن أشتري لك قبعة تلبسها حين نصل أسكوت .

فأجاب الغلام ضاحكا :

– دعنا من أمر قبعتي .

– وركضا حتى بلغا المحطة . وفي المحطة سأل المستر أوتيس ناظر المحطة عما إذا كان قد شاهد على الرصيف بنتا تطابق أوصافها أوصاف فرجنيا ، فأجاب بالنفي ، ولكنه مع ذلك أبرق للمحطات الأخرى على الجانبين وأكد له أن رجاله سوف يتفحصون كل وجه يمر بهم ابتغاء العثور عليها . ثم انطلق مستر أوتيس قاصدا بيكسلي بعد أن ابتاع قبعة للدوق الصغير من تاجر كان يهم بإغلاق حانوته ، وبيسكلي هذه قرية تبعد عن أسكوت نحو أربعة أميال ، وكان يعلم أنها من البلاد

المختارة عند الغجر ، لأن في مشارفها أرضا معشبة واسعة تصلح لضرب الخيام وحين بلغا القرية أيقظا الشرطي ولكنهما لم يظفرا منه بجواب شاف . وبعد أن طافا بالأرض المعشبة الواسعة طولا وعرضا عادا إلى كانترفيل نحو الساعة الحادية عشرة يفتك بهما الإعياء والهم العظيم .

وكان واشنطن والتوأمان في انتظارهما عند مدخل الدار يحملون المصابيح لينيروا الطريق الظليل المعتم . ولم يجد أحد لفرجنيا أثرا فقد استوقف الغجر في مراعي بروكلي ولكن فرجنيا لم تكن بينهم .وفسروا هجرتهم المفاجئة بأنهم ظنوا أن موعد احتفالات كورتون قد حل فبادروا بالنزوح خشية أن يتأخروا في الوصول . ولكم حزنوا حين علموا باختفاء فرجنيا ، فقد كانوا يحمدون لمستر أوتيس أنه أذن لهم بالإقامة بمراعيه وتخلف منهم أربعة رجال ليشتركوا في البحث عن الفتاة .كذلك فتش الباحثون البركة والغابة المشرفة على القصر تفتيشا دقيقا ولكن دون جدوى . وعلم الجميع أنهم لاشك مفتقدون فرجنيا في تلك الليلة على الأقل ، وسعى مستر أوتيس والغلمان إلى الدار في حزن لا يوصف ، لفهم سار السائس وهو يقود المهر والجوادين ، فلما دخلوا البهو وجدوا فريقا من الخدم في جزع عظيم بالمكتبة ورأوا مسز أوتيس على الأريكة مستلقية وقد أوشكت أن تجن من فرط اضطرابها ، والمدبرة العجوز إلى جوارها تمسح جبينها بالكولونيا وألحف عليها مسترأوتيس في أن تتناول من الزاد شيئًا أمر بإحضار الطعام للجميع . وخيم على القوم الوجوم أثناء العشاء ،حتى التوأمان المرحان سكتا جزعاً وكمداً فقد كانا أشد ما يكونا حبا لأختهما ، وبعد أن انتهى العشاء أمر مسترأوتيس كلاً منهما أن يأويا إلى فراشه قائلا إن الانتظار لن يثمر فما في الإمكان عمل شيء في تلك الليلة معلناً أنه سوف يبرق في صبيحة اليوم التالي إلى سكوتلانديارد في طلب بعض رجال البوليس السري . ورجاه الدوق الصغير أن يمهلهم فرفض مستر أتيس رفضا باتاً وفيما هم خارجون من غرفة الطعام بدأت الساعة تدق انتصاف الليل . وما انتهت آخر دقة حتى سمعوا جلجلة جسم يسقط ، ثم صرخة

حادة ، وقعقع الرعد فاهتزت جدان الدار ، وسبحت في الهواء نغمات لحن ليس من ألحان البشر ، وسقط فجأة عند قمة السلم لوح من ألواح الحائط فكانت ثغرة ، ومن الثغرة دخلت فرجنيا شاحبة الوجه تحمل سلة صغيرة واندفع الجميع نحوها ، وفي لحظة كانت مسز أوتيس تضمها إلى صدرها في انفعال شديد وكاد الدوق الصغير أن يخنقها بقبلاته المتلاحقة ، أما التوأمان فقد ذهبا يرقصان حول الحاضرين رقصة عنيفة من رقصات القتال . وظن مستر أوتيس لحظة أن فرجنيا كانت تلعب بهم فقال بلهجة لا تخلو من الغضب :

- أين كنت يا بنيتي ، بحق السماء! لقد بحثنا عنك ، سيسيل وأنا ، في جميع أرجاء المنطقة ، وأوشكت أمك أن تموت جزعاً . فلا بد أن تكفي عن أمثال هذه الدعابة .

- وصاح التوأمان وهما يرقصان حول الجماعة :

- إلا مع الشبح ! إلا مع الشبح !

- وقالت : مسزأوتيس وهى تقبل ابنتها المضطربة الفؤاد وتسوي بيدها شعرها الذهبي المنفوش :

- الحمد لله علا سلامتك يا بنيتي العزيزة . لا تغيبي عن بصري ثانية .

- قالت فرجنيا بصوت هادئ :

- لقد كنت مع الشبح يا أبت ، وقد مات ولا بد أن تأتوا لرؤيته . إنه كان شبحا شريرا ، لكنه ندم على فعاله أشد الندم ، وأعطاني هذا الصندوق قبل وفاته ، والصندوق مملوء بالحلي الكريمة .

- فحملق فيها الجميع متعجبين وقد ألجمتهم الدهشة ، ولكنها كانت آية في الجد لا تعرف المزاح . وتقدمتهم ونفذت بهم من الثغرة إلى دهليز سري ، ومن ورائها واشنطن حاملا بيده شمعة متقدة وجدها

على المائدة فأخذها . وأخيرا بلغوا باباً ضخما صنع من خشب البلوط به عدد من المسامير الصدئة . وما أن مسته فرجنيا حتى انفتح على مصراعيه فألفوا أنفسهم في غرفة صغيرة منخفض سقفها محدودب ، لها طاقة واحدة ذات عوارض من أسياخ الحديد . وشاهدوا حلقة حديدية ضخمة مغروسة في الحائط وقد قيد فيها هيكل عظمي ناحل كان مستلقيا على الأرض الحجرية استلقاء كاملا ، وبدا أن أصابعه الطويلة العارية من كل لحم تجتهد أن تمسك بإبريق وصحفة وضعا بجواره على نحو لا يمكنه من بلوغهم . وما من شك في أن الإبريق كان يستخدم في الماضي فقد كان العفن الأخضر يكسوه من الداخل ولم يكن في الصفحة غير حفنة من تراب ،وجثت فرجنيا بجانب الهيكل العظمي وعقدت يديها وأنشأت تصلي صلاة صامتة على حين أخذ بقية أفراد الأسرة ينظرون في عجب إلى هذه المأساة التي تكشف لهم سرها منذ لحظات .وكان أحد التوأمين يطل من النافذة ليعرف مكان الغرفة من الدار ،وإذا به يصيح فجأة :

– انظروا ! انظروا! لقد أينعت شجرة اللوز اليابسة .وإني لأرى أزهارها واضحة في نور القمر . .

ونهضت فرجنيا من مجثاها وأشرق في محياها ضياء جميل وقالت بخشوع :

– إنه الله قد غفر له .

وطوق الدوق الصغير جيدها بذراعيه وقبلها قائلا : ما أنت إلا ملك كريم .

الفصل السابع

مضت على هذه الأحداث أربعة أيام وأقيم جنّاز في قصر كانترفيل . بدا الموكب من الدار وكانت تجر العربة ثمان جياد سود كل منها يحمل فوق رأسه خصلة جسيمة متراخية من ريش النعام ، وكان النعش مصنوعا من رصاص وقد كساه كفن ثمين لونه أرجواني نقشت عليه بخيوط الذهب شارة آل كانترفيل . ومشى الخدم بجانب عربة الموتى وما بعدها من عربات يحملون المشاعل ، فكان الموكب جليلا يملأ الناظرين خشوعاً . وكان لورد كانترفيل على رأس أصحاب الحداد ، وقد جاء من ويلز خاصة ليشهد الجنازة ، جلس في العربة الأولى بجوار فرجنيا الصغيرة . وفي العربة الثانية جلس وزير أمريكيا المفوض وزوجته . وفي العربة الثالثة جلس واشنطن والغلمان الثلاثة . وجلست مسز أمني في العربة الأخيرة ، فقد رأت الأسرة أن من حقها أن تودع الشبح الوداع الأخير لأنه أقد مضجعها زهاء خمسين عام . وفي ركن المقبرة حفر لحد عميق بجواره شجرة السرو العتيقة ، وقرا القدّاس نيافة الأسقف أوغسطس دامبير بصوت مؤثر يشيع الرهبة في القلوب . فلما انتهت المراسم أطفأ الخدم مشاعلهم كما تقضي بذلك تقاليد آل كانترفيل منذ القدم . فيما هم يدلون التابوت في اللحد تقدمت فرجنيا ووضعت عليه صليبا كبيرا صنع من أزهار اللوز البيضاء وأزهار اللوز الوردية . وظهر القمر من وراء سحابة ليشهد فرجنيا تبارك الراحل بالصليب ، فغمر

نوره الفضي المقبرة الصغيرة ، ومن دغل بعيد أطلق بلبل عقيرته بالغناء ، وتذكرت وصف الشبح لحديقة الموت ففاضت من عينيها الدموع ، وحين عاد الجميع إلى القصر لزمت الصمت العميق

– وقبل أن يعود اللورد كانترفيل إلى لندن في صباح اليوم التالي جرى بينه وبين مستر أوتيس حديث بصدد الحلي التي أعطاها الشبح لفرجنيا . وكانت الحلي رائعة الحسن بينها عقد من الياقوت المطعم على طريقة البندقية ، فهو آية من آيات القرن السادس عشر ، وكانت الحلي عظيمة القيمة حتى لقد مانع مستر أوتيس في أن تقبل ابنته مثل هذه الهدية بدافع من ضميره . قال :

– أنا أعلم يا سيدي اللورد أن العادة في هذه البلاد قد جرت بأن يسري الوقف على الجواهر كما يسري على الأرض ، وما من شك في أن هذه المجموعة من الحلي ينبغي أن تكون من تراث الأسرة الثابت . لهذا لا يسعني إلا أن أرجو أحر الرجاء أن تأخذها معك إلى لندن وأن تعدها جزءا من ميراثك رد إليك في ظروف غير مألوفة لا أكثر .أما ابنتي فهي لا تزال طفلة وهي بحمد الله لا تزال إلى اليوم بعيدة عن الاهتمام بأمثال هذه الأشياء من مستلزمات الأرستقراطية المترفة المتبطلة ثم إن مسز أوتيس وهى حجة لا يستهان بها في التحف الفنية بحكم ترددها الطويل على بوسطن أيام صباها ،أقول إن مسز أوتيس قد أخبرتني بأن لهذه الجواهر قيمة مالية عظمى ولو أنها عرضت للبيع لجاءتك بثمن طائل .لهذا كله يا سيدي اللورد كانترفيل اعتقد أنك ستقدر استحالة بقائها في حوزة أي فرد من أفراد أسرتي . وأضيف إلى ذلك أن أمثال هذه الأدوات الصبيانية والكماليات الزائفة وإن تكن من ضرورات الجاه عند الأرستقراطية البريطانية ، لا محل لها إطلاقا في مجتمع ربي على البساطة التامة التي تنادي بها المبادئ الجمهورية الخالدة على الأقل في رأي أنا . ولا بأس من أن أذكر أن فرجنيا شديدة الرغبة في الحصول على الصندوق كتذكار من سلفك المسكين الضال . ولما كان الصندوق قديما أتلفه البلى ولا سبيل إلى إصلاحه فلعلك لا ترى مانعا من

تحقيق رغبتها .أما أنا فيدهشني جدا أن أري بنتاً لي تظهر الكلف بأي أثر من آثار العصور الوسطى ، وإني لأعزو هذا إلى ظروف مولدها، فقد ولدتها أمها في ضاحية من ضواحي لندن بعد عودتها من رحلة قامت بها إلى أثينا بفترة قصيرة .

– وكان لورد كانترفيل يصغي إلى كلام الوزير الجليل باهتمام بالغ ، وهو يفتل شاربه الأشيب من وقت لآخر لعله بذلك يستر ابتسامة تغالبه . فلما فرغ مستر أوتيس من مقاله صافحه بحرارة قصوى وقال :

– يا سيدي العزيز ، إن ابنتك الساحرة قد أدّت إلى سلفي التعيس سير سيمون خدمة جلى ، ونحن ، أنا وأسرتي ، مدينون لها بالكثير بسبب شجاعتها النادرة . فلا جدال في أن الحلّي ملك لها ، ولو أني سلبتها إياها فلست أشك في أن جدي الشرير هذا تارك قبره بعد أسبوع واحد لينتقم مني أشد الانتقام . أما عن قولك إن هذه الحلي تراث لنا دائم ، فنحن في إنكلترا لا نعد التراث دائما إلا إذا نص عليه في وصية أو في وثيقة لها صفة رسمية ، وهذه الحلي لم يعلم بوجودها إنسان . فأؤكد لك أن حقي فيها لا يزيد عن حق كبير الخدم في بيتك ، واعتقد أن ابنتك سوف تسر بأن تجد ما تتزين به حين تكبر .ثم إنك نسيت يا مستر أوتيس أنك قد اشتريت مني الأثاث والشبح على أنهما جزء من الصفقة ، وكل ما يملكه الشبح تنتقل ملكيته إليك بطبيعة الحال . وإذا كان سير سيمون قد أبدى بعض النشاط في دهليز القصر أثناء الليل ، فهو رغم ذلك ميت في نظر القانون ، وقد آلت إليك أملاكه بقوة الشراء .

– وأحزن مستر أوتيس رفض لورد كانترفيل ،فرجاه أن يعيد في الأمر النظر ، ولكن النبيل الطيب القلب كان ثابتا لا يتزعزع في رأيه ، ونجح آخر الأمر في إقناع الوزير المفوض بأن يأذن لابنته في أن تحتفظ بهبة الشبح .ولما تقدمت الدوقة الشابة ، دوقة تشيشاير ، عام ١٨٩٠ لمقابلة الملكة في افتتاح موسم الحفلات بمناسبة زواجها كانت حليّها

موضع إعجاب الخاص والعام ، فلقد حصلت فرجنيا على إكليل الزهر الذي تكافأ به كل فتاة أمريكية صالحة ، وزفت إلى عاشقها الصغير حالما بلغ سن الرشد . وكان الدوق آية في الوسامة وكانت الدوقة آية في الجمال ، وكان كل منهما يحب الآخر حبا لا مزيد عليه ، حتى أن الجميع استقبلوا هذا الزواج بالغبطة ، اللهم إلا المركيزة العجوز ، مركيزة دمبلتون ،التي كانت تطمع في اقتناص الدوق لإحدى بناتها السبع وتقيم الحفلات المتتالية لتحقيق هذا الغرض . كذلك لم يرض مستر أوتيس نفسه عن هذا الزواج وهو أمر جد غريب . فقد كان يحب الدوق الصغير من الناحية الشخصية ولكن مبادئه كانت لا تقر الألقاب ، وكان يخشى على قوله :"أن تنسى فرجيتا البساطة التي تمليها المبادئ الجمهورية تحت تأثير الأرستقراطية التي تعيش للذة وحدها ، وهو تأثير خبيث" . مهما يكن من شيء فإن اعتراضاته لم يؤخذ بها ، وأحسب أنه يوم سار في ممشى كنيسة سانت جورج بميدان هانوفر تعتمد ابنته على ذراعه أحس بأنه لا يطاوله إنسان في انكلترا كلها .

– ولما انتهى شهر العسل قصد الدوق والدوقة إلى قصر كانترفيل ، وفي اليوم التالي لوصولهما خرجا معا بعد الظهر إلى المقبرة الموحشة المتاخمة لغابة الصنوبر . وقد صادف آل كانترفيل بعض المشقة في اختيار الكلمات المناسبة التي تحفر على شاهد سير سيمون ولكنهم انتهوا آخر الأمر إلى الاكتفاء بحفر الحروف الأولى من اسمه يليها السطور المنقوشة على نافذة المكتبة . وكانت الدوقة تحمل بعض الورد فنثرتها على قبره ، وبعد أن وقفا إلى جوار القبر وقتا ما جاسا بين أطلال الدير المخرب . وهناك جلست الدوقة على عمود محطم ورقد زوجها عند قدميها يدخن سيجارة ويتأمل عينيها الجميلتين . ثم ألقى بسيجارته فجأة وأمسك بيدها قائل :

– اسمعي يا فرجنيا ، إن الزوجة لا يحق لها أن تخفي عن زوجها شيئا .

- ولكني لا أخفي عنك شيئا يا حبيبي .

- فأجاب وهو يبتسم :

- نعم إنك تخفين عني شيئا ، فأنت لم ترو لي ما حدث بينك وبين الشبح حين كنتما في الغرفة على انفراد .

- قالت فرجنيا بلهجة جادة :

- أنا أعلم ذلك ، ولكن هل لي أن أعرف ما حدث ؟

- كلا ياسسيل ، وأرجوك ألا تسألني ذلك ، فلست أستطيع أن أبوح به لأحد . ياللسير سيمون من رجل تاعس . إني لمدينة له بالشيء الكثير . ولا تسخر مني يا سيسيل فهذا صحيح . لقد علمني مغزى الحياة ومغزى الموت ، وعرفت منه كيف يقهر الحب المنون .

- ونهض الدوق وقبّل زوجته قبلة العشق الصافي وقال :

- لن يخفى علّي سر من أسرارك ما دمت أملك قلبك .

ولقد ملكت قلبي دائما ياسسيل .

- ولسوف تقصين ما حدث على أطفالنا ، أليس كذلك ؟ وضرج الخجل خدي فرجنيا .

الفهرس

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

ودار المدى التي شرعت فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها الى قارئ اليوم، إنما تهدف الى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول الى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) وسلسلة (كتاب المدى) و (روايات المدى) التي تصدر في وقت واحد بمناسبة الدورة الثانية لأسبوع المدى الثقافي إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لاتثقل عليه.

فخري كريم

ISBN 2-84305-462-X